الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و العاقبة للمتقين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة و أتم التسليم ، قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر ابن عبد الله السعدي -رحمه الله و غفر له و للشارح و السامعين- في كتابه أصول العقائد الدينية قال: و لا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله تعالى في إرادته و أقواله و أفعاله و حتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة وهو أن يصرف نوعا من أنواع العبادة لغير الله تعالى و كمال ذلك أن يدع الشرك الأصغر وهو كل وسيلة قريبة يُتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله و يسير الرياء و غير ذلك .

الشيخ : الحمد لله رب العالمين ، و العاقبة للمتقين و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمد عبده و رسوله صلى الله و سلم عليه و على آله و أصحابه أجمعين .

أما بعد . قال المؤلف -رحمه الله تعالى- : و لا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله تعالى في إرادته و أقواله و أفعاله هذه الأمور الثلاثة مجتمعة لا بد من أن يخلص العبد فيها لله جل و علا ليتم له توحيد العبادة الإرادة و مكانها القلب و الأقوال وهي باللسان و الأعمال وهي بالجوارح فهذه الثلاثة ما يصدر منها بيتغي به القرب من الله سبحانه و تعالى و يُعبد جل و علا به لا بد أن يقع خالصًا و الخالص الصافي النقي الذي لم يُرد به إلا وجه الله جل و علا فإذا خالط الإرادة أو خالط الأقوال أو خالط الأفعال نية ليست خالصة تجعل مع الله سبحانه و تعالى شريكًا فإن العمل لا يُقبل لأن الله سبحانه و تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه كما قال جل و علا : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } و كما قال جل و علا : { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ } و الخالص الصافي النقي هذا معنى الخالص الذي لم يُرد به إلا الله سبحانه و تعالى ، ولهذا قال -رحمه الله - : حتى يخلص العبد لله تعالى في إرادته و أقواله و أفعاله أي أن هذه الثلاث الإرادات و الأقوال و الأفعال تصدر منه لا بيتغي بها إلا الله جل و علا لا يريد بالإرادة غيره و لا بالقول و العمل غيره جل و علا ، بل يريد بذلك كله وجه الله بهذا يكون من المخلصين ؛ لأن أعماله صدرت صافية نقية لا يُراد بها إلا الله جل و علا ، قال : و حتى يدع الشرك الأكبر

المنافي للتوحيد كل المنافاة لا يمكن أن يكون مخلصا لله تبارك و تعالى في إرادته و قوله و فعله إلا بترك الشرك الأكبر ،والشرك الأكبر كما ذكر المصنف -رحمه الله تعالى - منافٍ للتوحيد كل المنافاة بمعنى أن الشرك الأكبر إن وجد من الإنسان انتفى التوحيد و بطل العمل و حبطت الطاعات و العبادات { وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ } فالشرك الأكبر محبط للأعمال مبطل لها ،ينافي التوحيد كل المنافاة ومعنى ينافي التوحيد كل المنافاة أي أن الشرك الأكبر إذا وجد انتفى التوحيد تماما و لا يكون الإنسان في عداد الموحدين بل يكون في عداد المشركين -والعياذ بالله - ،قال :المنافي للتوحيد كل المنافاة وهو أن يصرف نوعا من أنواع العبادة لغير الله هذا تعريف الشرك الأكبر في باب العبادة في توحيد العبادة ،الشرك الأكبر في توحيد العبادة هو أن يصرف نوعا من أنواع العبادة لغير الله أما تعريف الشرك الأكبر عموما فهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه أو حقوقه ،في شيء من خصائصه من الربوبية و الخلق و الرزق و الأسماء و الصفات ،وحقوقه أي العبادة التي خلق الخلق لأجلها و أوجدهم تبارك و تعالى لتحقيقها و تعريف المؤلف هنا للتوحيد هو تعريف لتوحيد العبادة و توحيد العبادة يتضمن نوعي التوحيد الآخرين ،يتضمن توحيد الربوبية و توحيد الأسماء و الصفات ؛لأن من عبد الله جل و علا مخلصا له الدين فهذا مبني على معرفته بالله ومعرفته بأسمائه جل و علا و صفاته ،بينما من وجد منه توحيد الربوبية بمعنى أنه عرف أن الخالق الرازق المنعم هو الله جل و علا فإنه قد يعبد الله و قد لا يعبد له لموانع كثيرة وجدت في كثير من الناس عرفوا أن ربهم هو الله و أن خالقهم هو الله و أن رازقهم هو الله لكنهم عبدوا غيره هذا موجود كثير يعرف أن الرب هو الله و أن الخالق هو الله و أن الرازق هو الله لكن يعبد غيره و ربما أيضا كثير من هؤلاء إذا سُئِلَ يقول ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى يعني هذه المعبودات نتخذها مع علمنا بأن خالقنا هو الله و رازقنا هو الله لكننا نعبدها لكي تقربنا إلى الله وهذا هو معنى قوله تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف : ١٠٦] { وما يؤمن أكثرهم بالله } أي ربًا خالقا رازقا مالكا متصرفا مدبرا { إلا وهم مشركون } أي مشركون به غيره في العبادة باتخاذ الأنداد و لهذا قال أيضا جل و علا { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أي: لا تجعلوا لله شركاء في العبادة و أنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله سبحانه وتعالى ،قال : وهو أن يصرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله ،من أنواع العبادة كالصلاة و الحج و الذبح و النذر و الدعاء و الرجاء و الخوف و التوكل و الاستغاثة و الإنابة و غير ذلك ،العبادات كلها بأنواعها و أفرادها هي حق لله جل و علا { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } [الجن : ١٨] العبادة حق لله ،قال : (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد و ما حق العباد على الله ؟ قلت: الله و رسوله

أعلم، قال : (حق الله على العباد أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً) فالعبادة حق لله كما أن ربنا سبحانه و تعالى تفرد وحده بالخلق و الرزق و الملك و التصرف و التدبير لا شريك له فالواجب أن يُفرد وحده تبارك و تعالى بالعبادة فلا يُتخذ معه الأنداد و لا يُجعل الشركاء بل يُخلص له وحده جل و علا الدين و يُفرد وحده سبحانه و تعالى بالعبادة

قال : وكمال ذلك أن يدع الشرك الأصغر ، كمال التوحيد الواجب ، لأن الكمال كمالان كمال واجب و كمال مستحب ، فكمال التوحيد الواجب أن يدع الشرك الأصغر و ذلك لأن الشرك الأصغر لا ينافي التوحيد كل المنافاة الشرك ؛ لأنه يختلف عن الشرك الأكبر في حده و في حكمه ، أما اختلافهما في الحد أي التعريف فالشيخ - رحمه الله - عرّف كل من الشركين بتعريفين مختلفين ، قال في الشرك الأكبر كما تقدم : هو أن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى ، وقال في حد الشرك الأصغر - كما سيأتي - قال : كل وسيلة قريبة يتوصل بها إلى الشرك الأكبر ، وعرفه بعض أهل العلم : كل أمر أطلق عليه في النصوص بأنه شرك و لم يبلغ حد الشرك الأكبر الذي هو صرف شيء من العبادة لغير الله تبارك و تعالى ، فإذا كان الشرك الأكبر و الأصغر مختلفين في الحد تعريف كل منهما مختلف عن الآخر ، ويختلفان كذلك في الحكم لأن المشرك شركاً أكبر كافر بالله كفر أكبر ناقل من الملة و حكمه يوم القيامة الخلود في نار جهنم أبد الآباد ، والشرك الأصغر لا يكون صاحبه خارجاً من الملة و لا يكون يوم القيامة مخلداً في النار إذا دخلها ، فالشرك الأكبر والأصغر مختلفان في الحد في حد كل منهما و في حكم كل منهما .

قال : وكمال ذلك أن يدع الشرك ، وكمال ذلك ، أي : كمال التوحيد ، وعرفنا أن المراد بالكمال الكمال الواجب ؛ لأنه يجب على كل مسلم أن يجتنب الشرك الأصغر و أن يحذر منه وهو من كبائر الذنوب و هو من أعظم الكبائر ، قال عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - : لئن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً . لأن الحلف بالله كاذباً كبيرة و الحلف بغيره صادقاً شرك ، والشرك أعظم من الكبائر ، فتوحيد العبد لا يتم إلا باجتناب الشرك الأصغر ، لا يحصل له الكمال الواجب إلا باجتناب الشرك الأصغر ، فإذا وجد من الإنسان الشرك الأصغر لا ينتقل بذلك من الملة بل ينقص كمال إيمانه الواجب بحسب ما وقع فيه من الشرك ، أي الأصغر ، ثم ذكر - رحمه الله - تعريف الشرك الصغر ، قال : وهو كل وسيلة قريبة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر ، يعني الذرائع ذرائع الشرك الأكبر و وسائله المفضية إليه فهذه كلها تعد شركاً أصغر ؛ لأنها ذريعة إلى الشرك الأكبر و مفضية إليه ، وبعض أهل العلم قال في حده : هو كل أمر أطلق عليه الشارع بأنه شرك وهو ذريعة أو وسيلة إلى

الشرك الأكبر ، فهذا يُعد شركاً أصغر ، ضرب - رحمه الله - بعض الأمثلة للشرك الأصغر ، قال : كالحلف بغير الله هذا من الشرك الصغر وهو من الكبائر ، قال عليه الصلاة و السلام : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) ، وقال عليه الصلاة و السلام : (لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم من كان حالفاً فليحلف بالله) وقال عليه الصلاة و السلام : (من حلف بالأمانة فليس منا) ، و الأحاديث عنه عليه الصلاة و السلام في هذا الباب كثيرة فالحلف بغير الله يُعد شركاً أصغر لكن إن قام في قلب الحالف بغير الله تبارك و تعالى من التعظيم و الإجلال ما لا يكون إلا لله سبحانه و تعالى ومن المهابة و الخوف ما لا يكون إلا لله سبحانه و تعالى فإنه ينتقل بذلك إلى الشرك الأكبر مثل ما يحصل من بعض من يعظمون بعض القبور أو المقبورين فيحلفون بهم معظمين لهم خائفين منهم معتقدين أنهم يعلمون بهم و بأحوالهم فهذا و لا ريب من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، و لهذا يذكرون عن بعض هؤلاء أنه حلفه صاحبه بالله فحلف ، فحلفه بغير الله بأحد الأولياء فحلف ، فغضب صاحبه غضباً شديداً وقال تحلف بالولي وهو يعلم أنك كاذب؟! هذه الكلمة ما قالها لما حلف صاحبه بالله ! لكن لما حلف بالولي غضب قال و أنت تعلم أنه يعلم أنك كاذب ، فمثل هذا لا يُعد في الشرك الأصغر الحلف الذي يُعد في الشرك الأصغر هو ما يجري على لسان الإنسان دون أن يقوم في قلبه التعظيم و الخوف و نحو ذلك للمحلف به إذا حلف بمخلوق و جرى ذلك على لسانه فهذا من شرك الألفاظ وهو من الشرك الأصغر ، كذلك يقول المصنف - رحمه الله تعالى - : و يسير الرياء ، يسير الرياء هذا من الشرك الأصغر ، أما الرياء الخالص هذا من الشرك الأكبر والرياء الخالص هذا الذي ذكره الله جل و علا عن المنافقين في قوله : { يُرَآؤُونَ النَّاسَ } أي ليس لهم مقصد بالعمل أصلاً إلا المرءاة ليس في قلبهم توحيد و لا إخلاص { وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا } { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : ١] فالرياء الخالص في عداد الشرك الكبر الناقل من الملة ، والله جل و علا قال عن هؤلاء : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } أما يسير الرياء و قليله فهذا معدود في الشرك الأصغر و من ذلكم أن يصلي الرجل لا يريد بصلاته إلا وجه الله و لا يتبغي بها إلا وجه الله لكنه مر عليه شخص أو اقترب منه شخص له مكانة عنده فحسّن صلاته ، عندما رآه ينظر إليه حسنها و زينها و جعلها لأجله ، فهذا يسمى يسير الرياء ، وقد خافه النبي عليه الصلاة و السلام على أمته خوفاً شديداً ، لقي مرة عليه الصلاة و السلام الصحابة وهم يتذاكرون فتنة الدجال وفتنة الدجال فتنة من أعظم الفتن و أشدها و أخطرهما ، فمر بهم وهم يتذاكرون فتنة المسيح الدجال فقال عليه الصلاة و السلام : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال ؟) قالوا : بلى يا رسول

الله، قال : (الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلح فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل) يعني عندما يرى رجلاً ينظر إليه فيحسن صلاته و يزين فيها من أجله فهذا شرك أصغر ،وبهذا يُعلم أن الرياء نوعان رياء خالص وهو مبطل للأعمال كلها ،محبط للعمل كله ،ورياء أصغر ليس رياء خالصاً وهذا مبطل للعمل الذي قارفه ؛لأن الله سبحانه و تعالى لا يقبل من العمل إلا العمل الخالص ،ومر معنا الحديث القدسي الذي يقول الله سبحانه و تعالى فيه : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته و شركه)) .

القارئ : والناس في التوحيد على درجات متفاوتة بحسب ما قاموا به من معرفة الله والقيام بعبوديته، فأكملهم في هذا الباب من عرف من تفاصيل أسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه ومعانيها الثابتة في الكتاب والسنة وفهمها فهماً صحيحاً فامتلاً قلبه من معرفة الله وتعظيمه وإجلاله ومحبته والإنابة إليه وانجذاب جميع دواعي قلبه إلى الله تعالى متوجهاً إليه وحده لا شريك له.

ووقعت جميع حركاته وسكناته في كمال الإيمان والإخلاص التام الذي لا يشوبه شيء من الأغراض الفاسدة فاطمأن إلى الله معرفة وإنابة وفعلاً وتركاً وتكميلاً لنفسه وتكميلاً لغيره بالدعوة إلى هذا الأصل العظيم فنسأل الله من فضله وكرمه أن يتفضل علينا بذلك.

قال -رحمه الله تعالى - :والناس في التوحيد على درجات متفاوتة ،أي ليسوا على درجة واحدة بل بينهم تفاوت ،ومن قواعد أهل السنة و أصولهم أن الإيمان يزيد و ينقص و يقوى و يضعف و أن أهله ليسوا فيه سواء بل أنهم متفاوتون منهم من إيمانه و دينه في قوة و ازدياد ومنهم من في ضعف و نقصان ،سئل الإمام أحمد -رحمه الله - أي يزيد الإيمان و ينقص؟ قال :يزيد حتى يكون أمثال الجبال و ينقص حتى لا يبقى منه شيء ،فالإيمان بما يشمل من أعمال في القلوب أو أقوال أو أعمال بالجوارح يزيد و ينقص و يقوى و يضعف و أهله فيه متفاوتون زيادة و نقصاً قوة و ضعفاً ليسوا فيه على رتبة واحدة و على درجة واحدة ،قال الله تبارك و تعالى : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } قوله : { مِنْ عِبَادِنَا } هذا فيه دليل على أنهم جميعاً من أهل التوحيد الذين

سُيذَكْرُونَ فِي الْآيَةِ { مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } إِذَنْ هُمْ لَيْسُوا عَلَى رَتْبَةٍ وَاحِدَةٍ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ وَكُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ لَكِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى رَتْبَةٍ وَاحِدَةٍ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ أَيُّ بِالْمَعَاصِي الَّتِي دُونَ الشَّرْكِ الَّتِي يَقَعُ فِي الشَّرْكِ هَذَا لَيْسَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ هَذَا مِنْ عِبَادِ الشَّيْطَانِ ، لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يَا مَرُءَ بِالتَّوْحِيدِ وَ الشَّيْطَانُ يَا مَرُءَ بِالشَّرْكِ ، { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } لِأَنَّ كُلَّ مُشْرِكٍ عَبْدٌ لِلشَّيْطَانِ ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ وَهُوَ الَّذِي يَا مَرُءَ بِالشَّرْكِ وَ التَّنْذِيرِ وَ اتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ وَ الشَّرْكَاءِ ، فَقَوْلُهُ : { اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِمَا فِيهِمُ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ ، وَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلْمِ فِي الْآيَةِ فِيمَا دُونَ الشَّرْكِ ، أَيُّ بِالْمَعَاصِي وَ الذُّنُوبِ { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } وَ الْآيَاتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَ كَذَلِكَ الْأَحَادِيثُ فِي السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي الْإِيمَانِ وَ التَّوْحِيدِ وَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا فِيهِ عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ كَثِيرَةٌ ، جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : (إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتَرَاوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ - أَيُّ يَنْظُرُونَ لِأَهْلِ الْغُرَفِ فِي مَنَازِلِهِمُ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ فِي الْجَنَّةِ - كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِيِّ فِي السَّمَاءِ) يَعْنِي مِثْلَ مَا تَنْظُرُونَ أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْكَوْكَبِ الرَّفِيعِ الْعَالِيِ فِي السَّمَاءِ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ مَا تَنْظُرُونَ أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْكَوْكَبِ الرَّفِيعِ الْعَالِيِ فِي السَّمَاءِ ، قَالَ (لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ) هَكَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ ، كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَكِنَّهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِيهَا { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [الْأَحْقَافُ : ١٩] كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَكِنَّ الدَّرَجَاتِ مُتَفَاوِتَةٌ التَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَ التَّوْحِيدِ ، كُلُّهُمْ أَهْلُ إِيْمَانٍ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ ، وَكُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ لَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الْإِيمَانِ وَ التَّوْحِيدِ وَلهَذَا تَفَاوُتَتْ رَتْبَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ : (لِتَفَاوُتِ مَا بَيْنَهُمْ) الصَّحَابَةُ حَرِيصُونَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ؟ أَيُّ هَذِهِ الْمَنَازِلُ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ خَاصَّةً بِالْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مَا يَصِلُونَ إِلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ ؟ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ : (بَلْ هِيَ لِرِجَالٍ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) يَعْنِي هَذِهِ الْمَنَازِلُ الْعَالِيَةُ الرَّفِيعَةُ لِرِجَالٍ

آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وحتى يتضح لنا الحديث أكثر ، هل يمكن أن يدخل الجنة من لا يؤمن بالله و لا يصدق المرسلين ؟ أي يمكن أن يدخل أحد الجنة وهو لا يؤمن بالله و لا يصدق المرسلين ؟ النبي صلى الله عليه و سلم قال في الحج : (لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة و أرسل رسل ينادون في الناس في الحج بحيث تنتشر هذه الكلمة و تدوي في الحجيج ، وأرسل الرسل ينادون بهذه الكلمة (يا أيها الناس لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة) والله يقول: { إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } فالجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة ، فإذا ما معنى قوله : (بل هي لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) هذا فيه إشارة و تنبيه إلى تفاوت إيمان من يؤمنون بالله و يصدقون المرسلين ، ولهذا في سورة الحديد قال الله سبحانه و تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الصدقية هذه أعلى درجة ، والله يقول : { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } لكن ليس إيمان كإيمان و لا تصديق كتصديق ، فالإيمان و التصديق يتفاوت و أهله ليسوا فيه سواء ، فيكون المراد بقوله : { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ } وقوله في الحديث (لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) المراد بذلك من تموا هذا المقام وكملاه وبلغوا به الدرجة العالية و المرتبة الرفيعة ، آمنوا بالله و صدقوا المرسلين أي الإيمان و التصديق التام الكامل ، و يأتي عند الشيخ رحمه الله تعالى وصف دقيق و نافع جدا للرتب العلية والمنازل الرفيعة في تحقيق هذا المقام ، فإذا شواهد الكتاب و السنة على تفاوت أهل الإيمان في الإيمان كثيرة و أن الإيمان يعتره ما يعتره فينقص و يضعف ، قال عليه الصلاة و السلام : (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب) الثوب يأتي عند صاحبه جديد أبيض ناصع ومع الزمان والمدة يخلق الثوب ويصبح قديم بالي متهاك ، قال : (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب) ما معنى يخلق ؟ أي يتقادم و يضعف و ينقص ، (كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم) ما أحوج أهل الإيمان إلى تجديد الإيمان و السعي في تميم الإيمان و الحذر من منقصات الإيمان و مضعفات الإيمان ، و السعي في زيادة الإيمان و تقوية الإيمان ، ما

أحوجهم لذلك؛ لأن الإيمان تعتربه أمور كثيرة تنقصه من فتن الدنيا و وساوس الشيطان و قرناء السوء و خلطاء الفساد و النفس الأمارة بالسوء و من غير ذلك من الأمور التي يترتب عليها ضعف إيمان الإنسان و نقص دينه فيحتاج العبد إلى أن يسعى جاهداً في تقوية إيمانه و تتميم دينه ، تقوية صلته بالله جل و علا قال : (فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم).

قال : والناس في التوحيد على درجات متفاوتة بحسب ما قاموا به من معرفة الله والقيام بعبوديته ، أي أن التفاوت يرجع إلى هذين الأمرين إلى معرفة الله أي بأسمائه و صفاته و أفعاله وجل و علا و من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب و عن معصيته أبعد ، كما قال الله سبحانه و تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } فالعبد إذا عرف الله معرفة صحيحة عرف أسمائه و عرف صفاته و عرف عظمته و عرف جلاله و عرف قدرته جل و علا على كل شيء و إحاطة علمه بكل شيء و أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء و أن بطشه شديد و أن عقابه أليم ، إذا عرف الله جل و علا معرفة صحيحة زاد إيمانه و صلحت حاله ، ولهذا قال -رحمه الله - : بحسب ما قاموا به من معرفة الله -هذا الأمر الأول- و القيام بعبوديته ، بمجاهدة النفس على فعل الطاعات و العلماء -رحمهم الله - يقولون : الإيمان يزيد و ينقص ، يزيد بالطاعة و ينقص بالمعصية ، إذا فعل العبد الطاعات زاد إيمانه و إذا فعل المعاصي نقص إيمانه ، الطاعة تزيد في الإيمان و المعصية تنقص الإيمان و تضعفه ، قال : بحسب ما قاموا به من معرفة الله و القيام بعبوديته ، ثم أخذ يصف -رحمه الله تعالى - حال أكمل الناس إيماناً ، قال : فأكملهم في هذا الباب و سيصف أكمل الناس إيماناً وصفاً دقيقاً نافعاً عظيماً مفيداً حقيقاً بالتدبر والتأمل و التمعن .

قال : فأكملهم في هذا الباب من عرف من تفاصيل أسماء الله و صفاته و أفعاله و آلائه و معانيها الثابتة في الكتاب و السنة و فهمها فهماً صحيحاً فامتلاً قلبه من معرفة الله و تعظيمه و إجلاله و محبته و الإنابة إليه و انجذاب

جميع دواعي قلبه إلى الله تعالى متوجهاً إليه وحده لا شريك له. هنا الشيخ -رحمه الله - يفصل الجملتين الماضيتين وهي قوله معرفة الله و القيام بعبوديته ،ففي جانب المعرفة ذكر هذا المعنى ،قال : فأكملهم في هذا الباب من عرف من تفاصيل أسماء الله،و أسماءه سبحانه و تعالى في القرآن والسنة كثيرة و هي أسماء و أوصاف دالة على عظمة الله و كماله و جلاله و أنه سبحانه المستحق وحده للعبادة و التعظيم و الإجلال ،قال :وصفاته و أفعاله وآلئه ،صفاته مثل السمع و البصر و العلم و القدرة و الإرادة و المشيئة ،وأفعاله جل و علا مثل الخلق و الرزق و الإحياء و الإنعام و الإمامة و التسخير و التدبير و التصرف في هذا الكون ،و آلائه أي نعمه { وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } { وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } قال : من عرف من تفاصيل أسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه ومعانيها الثابتة في الكتاب والسنة،أي :وعرف المعاني معاني الأسماء الثابتة في كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه و سلم ،وعرفنا قبل قليل أن أسماء الله أعلام و أوصاف ،فلا يكفي معرفة الاسم بل لابد من معرفة معناه معرفة صحيحة بعيدا عن تحريف المحرفين و تأويل المؤولين بل تعرف معرفة صحيحة في ضوء الكتاب و السنة و فهم سلف الأمة -رضي الله عنهم و رحمهم - قال :وفهمها فهماً صحيحاً ،ذكر هنا في هذا الباب شرطين الأول :أن تكون هذه المعرفة في ضوء الكتاب و السنة و الشرط الثاني أن يكون الفهم في ضوء فهم السلف الصالح الصحابة ومن اتبعهم بإحسان والله سبحانه و تعالى يقول : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ } فإذاً لابد أن تكون المعرفة في هذا الباب في ضوء الكتاب و السنة لا بالعقول المجردة أو الأهواء أو الآراء أو غير ذلك و أن يكون الفهم في ضوء فهم السلف الصالح -رضي الله عنهم و أرضاهم - .

قال : فامتلاً قلبه من معرفة الله وتعظيمه وإجلاله ومحبته والإنابة إليه ،أن يمتلئ القلب بهذه المعارف و العلوم معرفة الله و معرفة أسمائه و يكون القلب ممتلئ بذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام أن عمار يأسر امتلاً

إيماناً حتى مشاشه يعني حتى أطراف قدميه امتلاً إيماناً ، فمطلوب من العبد أن يجاهد نفسه ليملاً قلبه بالإيمان ليس الدين أعمال ظاهرة فقط بل القلب في الداخل يُملأ بالإيمان يملأ بالمعرفة معرفة الله و تعظيمه ، لا أن يكون القلب ممتلئاً بالدنيا الفانية ، وماذا يفيدك إذا ملأت قلبك بالدنيا ثم تأتي عليك ساعة و تفارقها و تلقى الله و ليس في قلبك شيء يسرك أن تلقى الله به من معرفته و تعظيمه و إجلاله جل و علا ، ولهذا ينبغي على العبد أن يجتهد في هذا الباب العظيم المبارك أن يجتهد في ملأ قلبه بمعرفة الله و معرفة أسمائه وصفاته و أفعاله و آلائه حتى يصل إلى هذه الدرجة التي وصفها المصنف بقوله : فامتلاً قلبه من معرفة الله و تعظيمه و إجلاله و محبته و الإنابة إليه ، أي الرجوع و الأوبة إليه ، قال : و انجذاب جميع دواعي قلبه إلى الله ، يعني القلب يميل بكليته في محبة الله و نيل رضاه ، هو غاية مقصوده و نهاية مطلوبه ، متوجه إليه وحده لا شريك له ، فإذا صلح القلب هذا الصلاح واستقام هذه الاستقامة تبعته الجوارح ، (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) ولهذا تأتي النتيجة قال : متوجهاً إليه وحده لا شريك له و وقعت جميع حركاته و سكناته في كمال الإيمان والإخلاص التام ، تصبح الأعمال و النيات و الحركات و السكنات كلها تقع على الإخلاص التام و ابتغاء وجه الله سبحانه و تعالى و طلب ثوابه و رضاه . الذي لا يشوبه شيء من الأغراض الفاسدة ، لأنه بلغ مبلغاً عظيماً فلا يخالطه الرياء و لا تخالطه السمعة و لا تخالطه إرادة الدنيا بالعمل و لا أي شيء من الأغراض الفاسدة بل ليس فيه إلا طلب رضوان الله و السعي في نيل محابه و مرضيه جل و علا .

قال : فاطمأن إلى الله ، يعني حصل لقلبه طمأنينة في هذا الباب { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ } حصلت له الطمأنينة ، و الطمأنينة رتبة عليّة في الدين ، طمأنينة القلب معرفة بالله و إنابة إليه و توكلًا عليه ، قال -رحمه الله - : فأطمأن إلى الله معرفة ، أي معرفة بالله و أسمائه و صفاته و أفعاله و آلائه ، و إنابة أي رجوعاً دائماً إلى الله سبحانه و تعالى

{ منيبين إليه } { وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ } أي كونوا دوماً في رجوع إلى الله و إقبال عليه و بعد و محاذرة للذنوب و المعاصي و فعلا و تركا ، أي اطمأن إلى الله سبحانه و تعالى في أفعاله و تروكه ، يفعل ما يأمره الله و يترك ما ينهاه الله عنه مجاهدًا نفسه على فعل الأوامر و ترك النواهي ، وهذه حقيقة التقوى تقوى الله جل و علا العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، و ترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله ، قال : و تكميلاً لنفسه ، أي بالسنن و المستحبات و الرغائب و أبواب البر الكثيرة العديدة يكمل نفسه بمثل هذه الأعمال ، قال : و تكميلاً لغيره بالدعوة إلى هذا الأصل العظيم ، أي بعد أن أكرمه الله بصلاحه في نفسه سعى نصحاء و دعوة للآخرين سعيًا في صلاحهم ، وهذا المعنى الذي قرره الشيخ -رحمه الله - هنا جاء مجتمعا في سورة العصر السورة الوجيزة البليغة كما وصفها بذلك عمرو ابن العاص -رضي الله عنه - { وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } أي : بعد أن كملوا أنفسهم صلاحا بالإيمان و العمل الصالح سعوا في تكميل الآخرين قال : { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ } أي : أوصى بعضهم بعضا بالحق و دعوا إلى الله سبحانه و تعالى و صبروا على ذلك ، { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } ثم ختم -رحمه الله - بالدعاء فقال : فنسأل الله من فضله وكرمه أن يتفضل علينا بذلك . والدعاء كما يقول أهل العلم : مفتاح كل خير ، لأن الخير كله بيد الله ، يقول بعض السلف : تأملت في الخير فإذا أبوابه كثيرة الصلاة و الصيام و البر و غير ذلك و وجدت أن ذلك كله بيد الله ، فأيقنت أن الدعاء مفتاح كل خير ، ولهذا ينبغي على العبد أن يسأل ربه دائما و أبدا أن يهديه و أن يصلح له شأنه و أن يصرف عنه الفتن ما ظهر منها و ما بطن ، و أن يثبتته على الحق و الهدى و أن يعيده من الشيطان الرجيم و أن يعيده من شر نفسه و أن يعيده من شر كل ذي شر و أن يهديه إليه صراطا مستقيما يلح على الله و يتحرى أيضا أوقات الإجابة ، أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد و الثلث الأخير من الليل وقت إجابة الدعاء ، وفي الجمعة ساعة لا يُرد فيها الدعاء ، و يوم عرفة أرجى أيام الدعاء فيتحرى الدعاء في أوقات

الإجابة و في الأوقات عموماً يسأل الله الثبات يسأل الله عز و جل العزيمة على الرشد و الثبات على الأمر ، يسأل الله موجبات رحمته وعزائم مغفرته، يسأل الله جل و علا شكر نعمته و حسن عبادته ، يسأل الله جل و علا قلباً سليماً و لساناً صادقاً ، يسأل الله جل و علا الثبات على الهدى و الإعازة من الضلال يلح على الله جل و علا بالسؤال ، ونبينا عليه الصلاة و السلام كان كثير الدعاء ، و من الأدعية التي كانت تأتي على لسانه و تُسمع منه كثيراً (ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار) و الله أعلم ، و صلى الله و سلم على رسول الله .